

تفريغ: (دورة تدبرات العلماء)

للشيخ: عقيل بن سالم الشمري.

تنبيه:

هذا التفريغ لا يُغني عن سماع المقاطع, نأمل عدم الاكتفاء به

تدبرات ابن القيم (1)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

هذه زيادة مدارسة في تدبرات ابن القيم، يعني: سأقرأ الآن تدبرات ابن القيم لأجل أن نتدرب كيف ينظر ابن القيم للآية، وبالتالي يستنبط منها؟ ما هي طريقته؟ ما هي منهجيته؟ ما هي آليته؟ سآخذ عدَّة أمثلة في هذه المقاطع، وأريد أن أبيّن أننا في هذه المقاطع لن نرتبط بالقواعد التي أشرحها، لكني سأتوسع قليلاً لأني أريد فقط أن أستنتج كيف يتدبر ابن القيم؟ وابن القيم مشهور بقضية التدبر.

سنأخذ قوله تعالى: ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلا تَأْكُلُونَ))[الذاريات:24-27].

هذه الآيات ابن القيم يستنبط التالي، اسمعوا ماذا يقول، طبعاً سأقرأ كلامه وسأعلق عليه.

يقول: في هذه الآيات ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة:

الوجه الأول: أنَّه وصف ضيفه بأنَّهم مكرمون. إذاً ابن القيم نظر إلى كلمة (المكرمين)، المكرمين تعود على الأضياف، ((هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ))، يعني: بيَّن الله أنَّهم مكرمون، ابن القيم استنتج من أنَّ ذكر عن ضيوف إبراهيم أنَّهم مكرَمين، معناها: أنَّ إبراهيم مكرِم، وإلا كيف كانوا مكرَمين؟! مدح الضيوف مدحٌ لصاحب المنزل، ولهذا قال: فيها ثناء على إبراهيم لأنَّ الله سمى أضيافه (مكرَمين)؛ بدليل أنَّه أكرمهم.

الفائدة الثانية عند ابن القيم: قال: ((إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ))، ولم يذكر استئذانهم، ففي هذا دليل على أنَّه عليه الصلاة والسلام كان قد عُرف بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة مطروقاً لمن ورده.

يعني: ابن القيم استنتج من كلمة ((إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ))، ولم يذكر: إذ استأذنوا عليه، وهذا يعطينا إشارة أنَّ ابن القيم أحياناً ينظر للفظ لِمَ قيل هذا اللفظ بهذا الشكل ولم يقال بشكل آخر؟ يعني: لماذا قال الله، أو ما الحكمة من قول الله: ((إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ))، ولم يقل: إذ استأذنوا عليه. لماذا ذكر الدخول مباشرة؟ قال: هذا دليل على أنَّ إبراهيم معتاد على الأضياف، وأيضاً دليل على أنَّ الضيوف دائم يدخلون لبيت إبراهيم ما يحتاج أنَّهم يستأذنوه، وهذا دليل على كرم إبراهيم.

الثالثة: ((قَالَ سَلامٌ))، انظروا ابن القيم الآن يريد أن يستنبط من كلمة واحدة وهي كلمة ((قَالَ سَلامٌ))، ويقول ابن القيم: بالرفع، وهم سلَّموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل.

يعني: ابن القيم الآن جلس يستنبط لنا فوائد من حتى الحركة، لماذا هم قالوا: سلاماً ((إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا))، بالنصب، ((قَالَ سَلامٌ)) هو بالضم، الفتحة والضمة هذه عند ابن القيم استنبط منها منهجية، أو استنبط منها فائدة وذلك لأنَّ النصب دليل على أنَّها مفعول به وقبلها فعل، وأما الرفع فدليل على أنَّها خبر وقبلها مبتدأ، وما دام أنَّها قبلها مبتدأ وهي خبر معناها أنَّها جملة اسمية، والجملة الاسمية أقوى من الجملة الفعلية، وبالتالي الجملة الاسمية كما مضى معنا تدلُّ على الثبات، وعلى التجدد، وعلى الاستقرار، وعلى الدوام، وعلى أنَّ هذا الأمر صار صفة لإبراهيم، فهم قالوا: نسلِّم عليك سلاماً، وهو قال: عليكم السلام، يعني: بصفة الرفع، فهذا دليل على أنَّ إبراهيم أكرم منهم في التحية، والإكرام في التحية هي نوع من إكرام الضيفان، فأيضاً فيها أمر رابع وهو ثناء على إبراهيم.

فصار عندنا ((الْمُكْرَمِينَ)) فيها فائدة، ((إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ)) فيها فائدة، ((سَلامٌ)) أيضاً فيها فائدة، وكل الفوائد تدلُّ على كرم إبراهيم.

الهدف: انظر إلى دقة ابن القيم في قضية الكلمات وتحليل الكلمات، حتى الحركات.

****

(تدبرات ابن القيم2)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً تدبرات ابن القيم في آية قصة إبراهيم:

يقول ابن القيم: قوله: ((قَوْمٌ مُنكَرُونَ))، حذف المبتدأ، يعني: ما قال: أنتم قوم منكرون، لكن قال: ((قَوْمٌ مُنكَرُونَ))، و(أنتم) حذفها إبراهيم. ابن القيم يستنبط من الحذف، وهذه دقة في التدبر أنَّك تتدبر في اللفظ، ثم تتدبر في الحركات في الضمة والفتحة، ثم تتدبر في الشيء المحذوف، فابن القيم قال: حُذفت كلمة (أنتم). يعني: المفروض أن يقول إبراهيم: سلام أنتم قوم منكرون، (أنتم)، لكن حذف (أنتم)، لماذا؟ يقول ابن القيم: وهذا يدلُّ على الأدب مع الأضياف؛ لئلا يكون فيه خشونة في الكلام، ما قال: أنتم قوم منكرون، قال: ((قَوْمٌ مُنكَرُونَ)).

وأيضاً تدبر ابن القيم في كلمة ((مُنكَرُونَ))، ولم يقل: إني أنكركم، أو أنا ما عرفتكم، وإنَّما قال: ((قَوْمٌ مُنكَرُونَ))، يعني: جاء بها على حذف الفاعل، بنى الفعل للمجهول وحذف فاعله،

فقال: ((مُنكَرُونَ))، ولم يقل: إني أنكركم، يقول ابن القيم: وهذا أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة والخشونة، ولهذا فرق بين أنَّك تقول لضيوفك مثلاً: أنتم ما أنتم معروفين عندي، وبين تقول: يا أهلاً فيهم من أي بلد؟ يا أهلاً فيهم من غير عرف؟ تصير أخف وقعاً من كلمة: أنتم ما أنتم معروفين، أو إني ما أعرفكم، أو أنتم منكرون، وهذا دليل على أيضاً كرم إبراهيم.

هو الهدف: أني أبيّن لكم منهجية ابن القيم أنَّه الآن بدأ تعدى قضية الألفاظ إلى الحركات، إلى المحذوفات، فبدأ الآن يتدبر في المحذوفات، وهذا يعطينا دلالة على ماذا؟ على أنَّ الإنسان إذا نظر في الآية عليه أن يشبع النظر، يعيد ويكرر، وينظر في اللفظ الأول، ثم الثاني، ثم الأول مع الثاني، ثم ما هو الشيء المحذوف لو حُذف؟ ثم لِمَ قال هذه الصيغة ولم يقل بصيغة أخرى؟ ثم لماذا حُذف ما حُذف؟ وينطلق المسلم المؤمن ينطلق من قاعدة أنَّ هذا اللفظ هو أكمل الأوجه، يعني: ما ذُكر في القرآن أنَّ هذا هو أكمل الصيغ، لكن يأتي بعد ذلك دور الإنسان المسلم في اكتشاف وجه الحُسن الموجود، مثل ما عمل ابن القيم.

أيضاً استنبط ابن القيم من كلمة ((فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ))، قال ابن القيم: أنَّه راغ إلى أهله ليجيئهم بنزلهم، والروغان هو: الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به الضيف، وهذا من كرم رب المنزل المضيّف أن يذهب بخفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي.

هنا ابن القيم يستنبط من ماذا؟ يستنبط من اللفظ، وهذا أيضاً باب جميل جداً في التدبر، يعني: من كلمة (راغ)، لِمَ قال الله: ((فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ))؟ لماذا ما قال الله: فذهب إلى أهله، فرجع إلى أهله، فأسرع إلى أهله، فعاد إلى أهله، لماذا كلمة (راغ)؟ ابن القيم الآن يعلمنا يدربنا في التدبر على أنَّه أي لفظ جاء في القرآن اسأل نفسك هذا السؤال: ما الحكمة من إتيان هذا اللفظ وليس غيره؟ فما الحكمة من قول الله مثلاً: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ))[الفاتحة:2]، ما الحكمة من أنَّ الله قال: ((الْحَمْدُ))؟ لماذا ما قال: المدح لله؟ ما الحكمة من أنَّ الله قال: ((مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ))[الفاتحة:4]؟ لماذا ما قال: مالك يوم القيامة، مع أنَّ المؤدى واحد؟ أكيد هناك حكمة؛ لأنَّه يريد أن يبيّن أنَّ الدين بمعنى الجزاء، يعني: كأنَّ الله يقول: يوم القيامة إنَّما تجزون فيه بأعمالكم، فأتى بلفظ الجزاء (الدين) حتى يكون أكثر وقع على القارئ.

المهم أنَّ ابن القيم انظروا الآن كيف يتدبر في اللفظ نفسه، فيصير عندنا ابن القيم الآن تدبر في الكلمة، وفي الحركات، وفي المحذوفات، وفي اللفظ من حيث اللغة العربية، يعني: لِمَ استعمل هذا اللفظ دون غيره.

****

تدبرات ابن القيم (3)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

ابن القيم أيضاً يكمل استنباطه في هذه الفوائد فيقول:

الفائدة السابعة: قال: أنَّ إبراهيم ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، فدلَّ على أنَّ ذلك كان معدَّاً عندهم، مهيئاً للضيفان، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه.

ابن القيم هنا يستنبط من ماذا؟ يستنبط من الفاء، يعني: لمَ قال الله: ((فَجَاءَ بِعِجْلٍ))، (فجاء)، ما الحكمة من أنَّ الله لم يأت بلفظ آخر؟ ما قال مثلاً: فراغ إلى أهله وأتى؟ ما الحكمة من إتيان ((فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ))، (فـ)؟ يستنبط ابن القيم أنَّ الفاء هذه تدلُّ على التعقيب، معناها: في سرعة، انظروا كيف الاستنتاج عند ابن القيم، الفاء تدلُّ على التعقيب، والتعقيب يدلُّ على السرعة، والسرعة تدلُّ على أنَّ الطعام كان مهيئاً، إذاً كان إبراهيم من عادته أن يوصي أهله دائماً أن يعتنوا بقضية الطعام، وأن يكون طعامهم جاهزاً، وأن يكثر طعامه؛ لأنَّه عُرضة، وهو على هذا أهل الكرم، وقصص الكرم التي نحن نسمع بها أحياناً وإن كانت هي دون إبراهيم أنَّ الإنسان أحياناً إذا كان معتاداً للكرم فإنَّه دائماً يتوقع أنَّه في حالة الغداء أو حالة الوجبات يعني سيأتيه، ولهذا يتعاهد أكله، فانظر كيف ابن القيم استنبط من (فجاء)، وهذا يدلك على أنَّه حتى الأحرف عند ابن القيم فيها تدبرات.

ثم يقول ابن القيم: قوله: ((فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ))، دلَّ على خدمته للضيف بنفسه.

من أين أتى ابن القيم بهذه الجملة؟ ((فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ))، قال: دلَّ على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم. استنبطها ابن القيم من كلمة (فجاء)، (جاء) فعل ماض، والفاعل (هو) يعني: إبراهيم، يعني: إبراهيم الذي جاء. ابن القيم سأل سؤالاً بينه وبين نفسه، هكذا التدبر هي أسئلة، فسأل ابن القيم نفسه: لِمَ إبراهيم هو الذي جاء؟ لماذا ما يأمر؟ يعني ما الحكمة من إتيان

فعل (جاء)؟ لماذا ما هو فعل (أمر)؟ فاستنبط ابن القيم أنَّ هذا يدلُّ على أنَّه هو يخدم الضيفان بنفسه، ولهذا أسند الله الفعل إليه، ((فَجَاءَ))، يعني: إبراهيم، وهذا طبعاً أبلغ في إكرام الضيف.

أيضاً ابن القيم استنبط من كلمة ((فَجَاءَ بِعِجْلٍ))، ما جاء كلمة (سمين) إلى الآن، لكن كلمة (عجل) نفسها، ما قال الله: فجاء بنصف عجل، فجاء بربع عجل، فجاء ببعض لحم، لا، أتى بالعجل بكامله، فقال ابن القيم: أنَّه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببعضه، وهذا من تمام كرمه صلى الله عليه وسلم.

الشاهد: أنَّ ابن القيم حتى كلمة (عجل) تأمل فيها، يعني: أعمل عقله في كلمة عجل، فاستنبط أنَّ عجل مقصودة، مع أنَّه لو قال في غير القرآن، يعني: لو قال: فجاء بلحم، فجاء بطعام، كاف، لكن ذكر الله كلمة (عجل) يريد منَّا أننا نُعمل أذهاننا، فاستنبط ابن القيم أعمل ذهنه واستنبط أنَّ هذا دليل على كرم إبراهيم؛ لأنَّه جاء بالعجل بكامله، ما يهمه قضية عدد الضيفان، المهم أن يأتي بالطعام بكامله، فيأخذ الضيوف حريتهم في قضية الأكل، وهذا من تمام كرمه.

ثم استنبط ابن القيم قال: سمين لا هزيل، ومعلوم أنَّ ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يُتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه. يعني: ابن القيم أيضاً نظر لكلمة ((سَمِينٍ))، وجاء ابن القيم في ذهنه سؤال: ما الحكمة من أنَّ الله يذكر كلمة (سمين)؟ يعني: ماذا يستفيد القارئ؟ لو قال الله: فجاء بعجل، فهمنا، لو قال: فجاء بطعام، كاف، لكن لماذا كلمة (سمين)؟ لأنَّ الله يريد أننا نتدبر هذه الكلمة، وبالتالي نستنتج أنَّ من إكرام الضيف أن يبذل الإنسان أنفس ماله؛ لأنَّ إكرام الضيف عبادة، وهذا المال الذي قدمته للضيوف هذا ليس خسارة، هذا يعتبر عبادة لله سبحانه وتعالى، من أجمل العبادات، ومن أروعها، وتخرج من أمراض القلب الشيء الكثير، انظروا كيف ابن القيم استنتج من كلمة (سمين).

****

تدبرات ابن القيم (4)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

نكمل تدبرات ابن القيم حتى نكتشف منهجية ابن القيم في التدبر، استنبط من كلمة ((فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ))، استنبط فائدتين فقط من كلمة ((فَقَرَّبَهُ)) ومن كلمة ((إِلَيْهِمْ))، فصار عندنا فائدتين.

الأولى: (قربه)، ولم يقل: وقال لخادمه: قرّبه، مع أنَّ الظن بإبراهيم أن يكون عنده خدم، لكنه قال: ((فَقَرَّبَهُ))، يعني: أسند الفعل إلى إبراهيم نفسه، وهذا دليل على خدمة الضيف بنفسه أنَّه

كان يخدم الضيوف، وهذا دليل على أنَّه كان يتلذذ بذلك، وهذا دليل على سخاء نفسه وكرمه، يعني: هذه النتيجة النهائية.

ثم استنبط ابن القيم من كلمة ((إِلَيْهِمْ))، فقال: وهذا أبلغ في الكرامة أن يجلس الضيف ثم يُقرَّب الطعام إليه، ويحمله إلى حضرته، ولا يضع الطعام في ناحية ثم يأمر الضيف بأن يتقرَّب إليه. يعني: استنتج ابن القيم من حتى الجار والمجرور ((إِلَيْهِمْ))، ((فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)).

والقصد أننا ننظر ونتتبع منهجية ابن القيم، حتى الأحرف فيها سر عند ابن القيم، وأكيد تؤدي دلالة، فهنا قال: ((فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ))، وهذا دليل على كرمه؛ لأنَّه ما يريد إعناء الضيوف، ما يريد إتعاب الضيوف، وإنَّما أتى بالطعام إليهم، ما عليهم إلا أن يمدوا أيديهم، هذا غاية في الكرم، فانظر كيف ابن القيم يستنتج حتى من الأحرف.

ثم أيضاً استنتج ابن القيم من الأحرف أيضاً أنَّه استنتج من ((أَلا تَأْكُلُونَ))، يقول ابن القيم: وهذا عرض وتلطف في القول، وهو أحسن من قوله: كلوا. يعني: ابن القيم كأنَّه جاء في ذهنه سؤال؛ لأنَّ التدبر عبارة عن أسئلة، ابن القيم جاء في ذهنه سؤال: ما الحكمة من أنَّ الله يقول عن إبراهيم أنَّه قال: ((أَلا تَأْكُلُونَ))، ولم يقل: (كلوا) مع أنَّ المؤدى واحد؟ يقول ابن القيم: لأنَّ (ألا) فيها عرض، فيها تلطف، فيها أدب مع الضيوف؛ لأنَّ عليهم نوع من الحياء هم، فلا يريد إحراجهم وقال: ((أَلا تَأْكُلُونَ))، يعني: يريد أن يتلطف معهم، وهذا أفضل من أنَّه لو قال: كلوا، مدوا أيديكم، افعلوا، وإنَّما أتى لهم بسؤال تلطفي، مع أنَّهم هم لن يأكلوا، فانظر كيف ابن القيم أيضاً استنتج من حرف (ألا) التي تدلُّ على التنبيه، وتدلُّ على اللطافة، وتدلُّ على الأدب أكثر من الفعل المضارع (كلوا).

القصد هنا انظروا لابن القيم كيف تأتي أسئلة في ذهنه ثم يجاوب عنها، وهذا دليل على أنَّه وهو يقرأ الآية فيها أسئلة، هو يثير أسئلة، لمَ قال الله كذا؟ لمَ قال الله: ((إِلَيْهِمْ))، ولم يقل: فقرَّبه؟ لمَ قال الله: عجل، ولمَ يقل: بنصف عجل؟ لمَ قال الله: (ألا)، ولم يقل: كلوا؟ هذه الأسئلة هي التي تجعل الذهن يعمل ويفكر هذا هو التدبر، أول ما يبدأ الذهن يفكر في هذه الأسئلة هذه هي عبادة التدبر، يعني: أنت دخلت الصلاة التي تسمى التدبر، أنت الآن بدأت العبادة، قضية استنتجت الجواب أو ما استنتجت الجواب هذا أمر ثان؛ لأنَّ الله يريد من العبد أن يتدبر كلامه، يعني: هذا المنظر محبوب لله أنَّ الإنسان يثير أسئلة على الآية ويبدأ بذهنه يفكر فيها ويعيد، قد يصل إلى الجواب وقد لا يصل إلى الجواب، هذا المنظر محبوب لله؛ لأنَّه عبد يتأمل في كلام سيده.

****

تدبرات ابن القيم (5)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من نصوص ابن القيم التي نستطيع أن نتدرب معه فيها على التدبر وعلى منهجية التدبر قول الله سبحانه وتعالى في النازعات: ((فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى))[النازعات:18-19].

استنتج منها ابن القيم كثير من الفوائد، سأختار بعض هذه الفوائد، وأعلق عليها حتى أبيّن لكم منهجية ابن القيم، يعني: كيف يفكر؟ كيف يتدبر الآيات؟ حتى نتدرب معه.

يقول ابن القيم في هذه الآية: هذا من لطف الخطاب ولينه، الذي هو ((فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى))، وذلك من وجوه:

أحدها: أخرج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، وهذا ألطف. يعني: ابن القيم نظر إلى حرف الاستفهام (هل)، هذه الكلمة استوقفت ابن القيم لماذا قال: ((هَلْ لَكَ))؟ ولم يقل مثلاً: تزكى مباشرة، هذا الحرف حرف الاستفهام استنتج منه ابن القيم أنَّ هذا دليل على أنَّ موسى عليه السلام أخرج كلامه مخرج العرض، ومخرج الطلب، مخرج العرض ومخرج من يعرض أمراً عرضاً، ومخرج اللطف، ومخرج اللين، ولم يأت به على شكل أمر، ما قال: يا فرعون تزكى.

والقصد: هو انظروا كيف أنَّ ابن القيم حتى كلمة (هل) هذه استنتج منها.

يقول ابن القيم: والثاني: قوله: ((إِلَى أَنْ تَزَكَّى))، والتزكي: النماء والطهارة والبركة والزيادة، فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل. يعني: ابن القيم نظر الآن إلى أي كلمة ((فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى))، كأنَّه جاء في ذهن ابن القيم سؤالاً: لمَ قال موسى ((هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى))؟ لماذا ما قال: هل لك أن تؤمن؟ هل لك إلى أن تؤمن؟ هل لك إلى أن تسلم؟ لماذا لفظ (تزكى)، وهذا يدلك على أنَّ التدبر هو عبارة عن أسئلة، يعني: أنت لازم تثير أسئلة على كل لفظة، بل ابن القيم يدربنا على كل حرف، بل ابن القيم زاد علينا اليوم فأصبح يدربنا حتى على الحركات ضمة وفتحة وكسرة، فهنا ابن القيم يقول: لم قال: ((تَزَكَّى))، لماذا ما قال: تؤمن؟ يقول: وذلك لأنَّ التزكي طهارة نماء يقبلها أي إنسان عاقل، فإذا عرضته على أي إنسان عاقل يقبله.

أيضاً ابن القيم يقول: الثالث: قوله: تزكى، ولم يقل: أزكيك، هذه تدلُّ على أنَّ ابن القيم يدربنا الآن على قضية التدبر بالمحذوف، يعني: كأنَّ ابن القيم آثار في ذهنه سؤال: لماذا ما قال: أزكيك؟ لماذا قال: تزكى؟ أكيد لابد أن يكون كلمة ((تَزَكَّى)) التي ذُكرت في القرآن أبلغ من كلمة: أزكيك، ثم بعد ذلك يبحث ابن القيم عن الجواب الذي يدلُّ على أنَّ ما ذكره الله هنا هو الأكمل، فقال: ((تَزَكَّى)) ولم يقل: أزكيك، فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يُخاطب الملوك؛ لأنَّ موسى أمام ملك، أمام فرعون، ولكل مقام مقال، فخاطب الملك باللغة التي فيها لين مع الملك، فقال: ((هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى))، ما قال: هل لك إلى أن أزكيك، مع أنَّ فرعون ما يتزكى، موسى يزكيه، إذا أسلم فرعون فإنَّ موسى هو الذي زكاه بعد توفيق الله، لكن انظروا لابن القيم كيف تأمل في كلمة (تزكى)، وأنَّه نسب التزكية إلى فرعون ولم ينسبها إلى نفسه، وهذا يدلك على أنَّ على التدبر في قضية الألفاظ، حتى في قضية: لمَ نُسب إلى الشخص المقابل؟ لماذا لم يُنسب إلى المتكلم.

أيضاً الرابع: قال: ((وَأَهْدِيَكَ))، قوله: ((وَأَهْدِيَكَ))، أي: أكون دليلاً لك وهادياً بين يديك، فنسب الهداية إليه، والتزكي إلى المخاطب. يعني: ابن القيم أثار سؤال: لمَ تغاير اللفظ؟ لماذا قال: ((تَزَكَّى))، ثم قال: ((وَأَهْدِيَكَ))؟ يعني: المفترض في غير القرآن يتشابه الضميران، إما أن يقول: تزكى وتهتدي، وإما أن يقول: أزكيك وأهديك، يعني: إما على سبيل المخاطب أو على المتكلم، لكن واحد للمتكلم وواحد للمخاطب هذه لابدَّ فيها سر عند ابن القيم، ولهذا فعلاً قال ابن القيم: والتزكي إلى المخاطب، أي: أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك على أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت، وهذا أحسن، هل أدلك على كنز أعطيك منه، هذا لا يليق. فانظر لابن القيم كيف استنبط من قضية تغاير اللفظين، وهذا يدلك أيضاً على أنَّه وأنت تقرأ القرآن انتبه للكلمات التي تغاير فيها الضمير، لابدَّ أن يكون ما ذكره الله هو الأكمل، ابحث عن وجه الكمال الموجود في الآية.

والحمدلله رب العالمين

جزى الله خيرا كل من قرأه ونشره واستفاد منه بأي طريقة كانت

تدبرات الطبري (1)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

هذه نماذج من تدبرات الإمام الطبري رحمه الله في تفسيره تفسير "جامع البيان"، سأقرأ كلامه ثم أعلق عليه.

قال رحمه الله: قوله: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ))[الفاتحة:2]، فإن قال قائل: ما وجه إدخال الألف واللام في (الحمد)، وهلَّا قيل: حمداً لله رب العالمين؟ قيل: إنَّ لدخول الألف واللام في (الحمد) معنى لا يؤديه قول القائل: حمداً، بإسقاط الألف واللام؛ وذلك أنَّ دخولهما في (الحمد) منبئ على أنَّ معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله. انتهى كلامه.

الطبري الآن نلاحظ أنَّه يتأمل أو يتدبر في الحرف (أل) (الحمد)، يعني: ما الحكمة من قول: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ))، ولم يقل: حمداً لله؟ وهو يجيب بأنَّ المعنى: (أل) الاستغراقية، يعني: جميع المحامد والشكر الكامل لله، فنلاحظ الآن نأخذ من كلام الطبري الآن تدبر الحروف، وأنَّ (أل) هذه أيضاً فيها فائدة.

ونستنتج شيء ثان وهو: أنَّ الإنسان عليه أن يثير سؤالاً على الكلمة القرآنية، سؤال القصد منه إثارة الذهن، فيقول مثلاً: لمَ قيل: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ))، ولم يقل: حمداً لله؟

ونلاحظ شيء ثالث أيضاً في كلام الطبري أنَّه هو يتحرك من قاعدة أنَّ اللفظ الذي أمامه في القرآن هو أكمل وأعلى وأتقن وأحكم لفظاً على الإطلاق، لكن يبحث عن ما وجه كمال هذا اللفظ، يعني: الطبري هو مقتنع بأنَّ (الحمد) هي أفضل من (حمداً لله)، لكن ما وجه ذلك؟ هو الآن ذكر لنا معنى ثانياً.

هناك تدبر ثان للطبري وهو قوله: ((وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ))[البقرة:45]، فإن قال لنا قائل: قد علمنا معنى الأمر بالاستعانة بالصبر على الوفاء بالعهد والمحافظة على الطاعة، فما معنى الأمر بالاستعانة بالصلاة على طاعة الله وترك معاصيه؟ قيل: إنَّ الصلاة فيها تلاوة كتاب الله، الداعية آياته إلى رفض الدنيا وهجر نعيمها، المسلية النفوس عن زينتها وغرورها، المذكرة الآخرة وما أعدَّ الله فيها لأهلها.. إلى آخر كلامه.

نلاحظ الآن الطبري يتدبر عند كلمة ((وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ))، يعني: كأنَّ الطبري جاء في ذهنه سؤال: ما الحكمة من الأمر بالاستعانة بالصلاة تحديداً؟ ما الحكمة من الأمر بالصبر؟ هذه واضحة؛ لأنَّ الصبر هو الذي يُستعان به، لكن ما الحكمة من الأمر بالاستعانة بالصلاة؟ يعني: ما وجه كون الصلاة تعين؟ هذا هو السؤال الذي جاء في ذهن الطبري وأراد أن يجاوب عنه بأنَّ الصلاة فيها القرآن، والقرآن هو آياته هي التي تدعو الإنسان إلى رفض الدنيا.

فنلاحظ إذاً أنَّ الطبري أثار سؤالاً على كلمة (الصلاة)، وأجاب عنها.

****

تدبرات الطبري (2)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من نماذج الإمام الطبري أنَّه قال عند قول الله: ((وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ))[غافر:27]، قال: وإنَّما خصَّ موسى صلوات الله وسلامه عليه الاستعاذة بالله ممن لا يؤمن بيوم الحساب؛ لأنَّ من لا يؤمن بيوم الحساب مصدِّقاً، لم يكن للثواب على الإحسان راجياً، ولا للعقاب على الإساءة وقبيح ما يأتي من الأفعال خائفاً، ولذلك كان استجارته من هذا الصنف من النَّاس خاصة. انتهى كلامه.

كلام الطبري نسجل فيه عدَّة ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أنَّه تدبر في كلمة وهي كلمة ((لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ)).

الأمر الثاني: أنَّ الطبري جاء في ذهنه سؤال: ما سرُّ تخصيص موسى الاستعاذة من هذه الفئة؟ يعني: لماذا قال موسى: ((إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ))، لماذا لم يقل: لا يؤمن بالله؟ لماذا لم يقل: من كل متكبر لا يؤمن بملائكة الله؟ لماذا ((لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ))؟

إذاً هذا هو مفتاح التدبر: أن يثير الإنسان في ذهنه سؤال على آية، والسؤال القصد منه إثارة الفائدة، إظهار بيان إعجاز الله، بيان إعجاز كلام الله.

فالطبري يجيب يقول: بأنَّ هذا الصنف تحديداً الذي لا يؤمن بيوم الحساب لا يرجو الثواب، ولا يخاف العقاب، ولهذا كانت استجارة موسى من هذا الصنف الذي ليس عنده رادع ذاتي، فلأجل ذلك خصَّ موسى استعاذته بالله من هذا الصنف تحديداً.

وعلى هذا نستطيع أننا نقيس آيات كثيرة تأتي في القرآن فيها تحديد لا يؤمن مثلاً بيوم الحساب، وأيضاً في السُنَّة {من كان يؤمن بالله واليوم الآخر}، ما فائدة تخصيص اليوم الآخر؟ نستطيع أننا من كلام الطبري نأخذ فائدة بأنَّ هذا الصنف تحديداً ليس عند رادع ذاتي.

فالمهم الآن لاحظوا أنَّ الطبري كيف أثار سؤالاً وكيف حاول الإجابة عليه.

****

تدبرات الطبري (3)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً نموذج آخر عند الطبري، وسأحاول أني أذكر بعض موقف المفسرين من هذه القضية.

مثلاً قوله تعالى: ((يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ))[البقرة:20]، ((وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ))[البقرة:20]، يقول الطبري: إنَّما خصَّ جلَّ ذكره السمع والأبصار بأنَّه لو شاء أذهبها من المنافقين دون سائر أعضاء أجسامهم للذي جرى من ذكرها في الآيتين، أعني قوله: ((يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ))[البقرة:19]، وقوله: ((يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ)). انتهى كلام الطبري.

يعني معنى كلام الطبري: الطبري أثار سؤالاً: ما الحكمة من قول الله: ((وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ))؟ يعني: ما هي الحكمة من تخصيص السمع والبصر؟ هذا السؤال الذي طرحه الطبري يستطيع القارئ منا أن يطرحه في جميع القرآن أينما جاءت كلمة (السمع والأبصار)، تستطيع أنَّك تسأل نفس سؤال الطبري.

طيب، جواب الطبري، الطبري يقول: بأنَّه النظر إلى الآية التي قبلها ((يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ))، والآية التي قبلها: ((يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ))، فذكر البصر والسمع مراعاة للسياق، هذا عند الطبري.

طبعاً المفسرين بعضهم وافق الطبري، وبعضهم ذكر أشياء أخرى، مثلاً البغوي يقول بأنَّ المناسبة هي أنَّه لما ذهب بصرهم الحقيقي ناسب ذكر البصر الحسي، ولما ذهب سمعهم الحقيقي الذي هو الفهم ناسب ذكر السمع الحسي؛ لأنَّ المنافق لم يستفد من سمعه ولا بصره، ولهذا ليس عنده بصيرة، فذكر الله البصر، وليس عنده فهم للخطاب فذكر الله السمع. وهناك من المفسرين من ذكر مثل القرطبي يقول: لأنَّها أشرف شيء في البدن.

فهذه عندنا عدة احتمالات، هذا احتمال، وما ذكره الطبري احتمال، وما ذكره القرطبي احتمال، المهم أنَّ هناك سؤال أثير: لمَ خُصَّ السمع والبصر في قول الله: ((وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ))، وعندنا عدَّة احتمالات للأجوبة، وقد يكون هناك احتمال آخر، يعني المجال مجال اجتهادي، نحن في هذا مجال ظني يذكره الإنسان، لكن كلما كانت الفائدة لصيقة بالقرآن كلما القرآن على هذه الطريقة كلما كانت الفائدة دقة.

****

تدبرات الطبري (4)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً نموذج آخر عند الطبري: قوله تعالى: ((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ))[المؤمنون:19]، يقول الطبري: وخصَّ جلَّ ثناؤه الجنَّات التي ذكرها في هذا الموضع، فوصفها بأنَّها من نخيل وأعناب دون وصفها بسائر ثمار الأرض؛ لأنَّ هذين النوعين من الثمار كانا هما أعظم ثمار الحجاز وما قرب منها، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف، فذكَّر القوم بما يعرفون من نعمة الله عليهم. انتهى كلام الطبري.

كلام الطبري هو إثارة لسؤال: ((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ))، يأتينا سؤال: لمَ خصَّ الله النخيل والأعناب؟ ما الحكمة من تخصيص النخيل والأعناب؟ هذا السؤال أيضاً نحن نستطيع أن نستعمله في كلِّ ما ورد من (نخيل وأعناب) في القرآن، يعني: أينما ورد قضية (النخيل والأعناب) تستطيع أنَّك تأتي بهذا السؤال، مثل: ((أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ))[البقرة:266]، ومثل أيضاً في سورة الإسراء: ((أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ))[الإسراء:91]، ومثل أيضاً سورة المؤمنون ((فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ))[المؤمنون:19]، يعني يأتينا نفس السؤال.

جواب الطبري يقول الطبري يعني مخلص جواب الطبري بأنَّ هذان هما أشهر شجرتين في مكة والطائف، فالنخيل في المدينة والطائف، فكانت النخيل لأهل المدينة، والأعناب لأهل الطائف ومكة وما حولها، فهو ذكر مراعاةً لحال المخاطبين. هذا اختصار كلام الطبري.

أيضاً المفسرين بعضهم وافق على قضية مراعاة أحوال المخاطبين التي ذكرها الطبري، وبعضهم لا، الماوردي يقول: وخُصَّت بالذكر لكثرة منفعتها، وقلَّة تعاهدها. والرازي يقول: فإنَّهما يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه. يعني: عظم فائدة النخيل والأعناب. والطاهر بن عاشور يقول: وما ذُكر هنا أصناف الشجر الثلاثة هو أكرم شجر وأنفعه ثمراً، وهو النخيل والأعناب والزيتون، والفواكه جمع فاكهة وهي: الطعام الذي يُتفكه به، أي: يُتلذذ به. فهو يتكلم على قضية أنَّه ذُكرت النخيل والأعناب لكونها أكرم شجر، ولأنَّها أنفع ثمر.

فتلاحظ أيضاً: أنَّ عندنا سؤال سئل على الآية ما فائدة تخصيص النخيل والأعناب؟ والأجوبة إما لأنَّها مراعاة لحال المخاطبين في ذلك الزمن المدينة والطائف ومكة تدخل مع

الطائف، وإما لعظم فائدة النخيل والأعناب، وكثرة منافعهما، فهذا احتمال، وذاك احتمال، والقضية اجتهادية.

المهم أنَّ عندنا سؤال ونجلس نفكر ما فائدة التخصيص؟ هذا هو التدبر، أول ما يتفكر الإنسان بدأت عنده عملية التدبر، يعني إن شاء الله بإذن الله إذا صدقت النية بدأ الاحتساب والعبادة، يتوفق للجواب الصواب أو يجتهد، كلاهما مراد لله سبحانه وتعالى.

****

تدبرات الطبري (5)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

نموذج آخر من تدبرات الطبري في قوله تعالى: ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ))[آل عمران:20]، هذه الآية أثار عليها الطبري سؤال فقال: إنَّما خصَّ جلَّ ذكره بأمره بأن يقول: ((أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ))؛ لأنَّ الوجه أكرم جوارح بني آدم.. إلى آخر كلام الطبري.

معنى كلام الطبري: أنَّه لماذا خصَّ الوجه في هذه الآية؟

ومثلها أيضاً يعني سؤال الطبري هذا نستطيع أن نسأله على آية الأنعام: ((إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ))[الأنعام:79]، فهذا السؤال، ومثلها أيضاً ((وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ))[البقرة:149]، أيضاً لماذا تخصيص الوجه؟ ((وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا))[يونس:105]، أيضاً لماذا خُصَّ الوجه؟ ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ))[الروم:30] في سورة الروم، وغير ذلك من الآيات التي فيها (وجهك) أو (وجهي)، ما سر تخصيص الوجه؟ هو نفس سؤال الطبري.

الطبري أجاب بأنَّ الوجه أكرم جوارح بني آدم، يعني: لكرمه خُصَّ هنا، فيه بهاء بني آدم، وفيه تعظيم الإنسان، وإذا خضع وجه الإنسان خضعت جوارحه، وإذا ذلَّ وجه الإنسان ذلَّت جوارحه، وإذا تنعَّم وجه الإنسان تنعمت جوارحه، والنضرة تظهر آثارها على الوجه، والحزن تظهر آثاره على الوجه، فالوجه هو أشرف الأعضاء، ونتيجة لذلك ((فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ))[آل عمران:20]، ذكر أشرف عضو في بني آدم لاستسلامه لله وهو الوجه.

هذه التي ذكرها الطبري أكثر المفسرين وافقه عليها أنَّها السبب، هو شرف هذا العضو تحديداً.

تدبرات السعدي (1)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

نأخذ الآن مجموعة من تدبرات الشيخ السعدي رحمه الله.

نبدأ بقول الله: ((وَيُقِيمُونَ الصَّلاة وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ))[البقرة:3]، يقول السعدي: وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن؛ لأنَّ الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان على عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق. انتهى كلام السعدي رحمه الله.

الملاحظ أنَّ السعدي هنا أثار سؤالاً على: ما سرُّ جمع الصلاة مع الزكاة في القرآن؟ فنحن نستطيع أننا نطبق مثل ما طبق الشيخ السعدي رحمه الله في كلِّ الآيات التي جُمع فيها بين الصلاة والزكاة، ونسأل نفس سؤال السعدي، ونستفيد من جواب السعدي رحمه الله بأنَّ أحد أسباب ذلك: أنَّ الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد، فيكون الله جمع سعادة العبد في أمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في، يعني أداؤه لحق ربه، وأداؤه لحق عبيد الله سبحانه وتعالى، أداؤه لحق الله، وأداؤه لحق الخلق.

ابن الجوزي رحمه الله يقول بأنَّ الله جمع بين الصلاة والزكاة؛ لأنَّ الصلاة هي أعلى أفعال الأبدان، والزكاة هي أعلى أفعال الأموال، فيكون العبد جُمع له بين عبادتين عاليتين.

نسجل عدَّة ملاحظات في هذا المقطع:

الأمر الأول: أنَّ السعدي رحمه الله سار على ما سار عليه الطبري وابن القيم وغيرهم من أهل العلم أنَّه يثير سؤالاً.

الأمر الثاني: أنَّه اجتهد في محاولة إيجاد حكمة لاقتران الصلاة بالزكاة.

الأمر الثالث: أنَّ الشيخ السعدي رحمه الله لاحظ قضية الاقتران، وهذه كثيرة في القرآن، يعني: شيء يقترن بشيء، فحاول أنَّك تفكر ما الحكمة من اقتران هذين الأمرين.

تدبرات السعدي (2)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

مقطع آخر لتدبرات السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ((أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ))[البقرة:5]، يقول السعدي رحمه الله: وأتى بـ(على) في هذا الموضع الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ(في)، في قوله تعالى: ((أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ))[سبأ:24]؛ لأنَّ صاحب الهدى مستعل بالهدى مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر. انتهى كلام الشيخ السعدي.

هنا نسجل عدة ملاحظات:

الملاحظة الأولى وهي التي نريدها: أنَّ السعدي رحمه الله أثار سؤالاً على حرف (على)، يعني: ما الحكمة من وروده؟ ما هو السرُّ في وروده؟ فأجال ذهنه في هذا الحرف، وهذا يدلك على أنَّ الإنسان عليه أن يتدبر أيضاً حروف القرآن.

الأمر الثاني: السعدي قرر كما قرره أهل العلم من قبله بأنَّ (على) تفيد الاستعلاء، فهو يحاول أن يوجد صيغة للاستعلاء في هذه الآية، فقال: أنَّ الهدى صاحبه دائماً مستعل، دائماً مرتفع، والهداية ارتفاع وعلو عند الله سبحانه وتعالى وعند لخلق.

ثم أيضاً أفادنا فائدة أخرى السعدي بأنَّ (في) تدلُّ على الانغماس، ولهذا تأتي مع الضلال ما تأتي مع الهدى، فقال: ((أُوْلَئِكَ عَلَى هُدًى))، وفي آية الضلال قال: ((أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ))، يعني: تدلُّ على الانغماس، فـ(في) تدلُّ على الانغماس، ولهذا أتت مع الضلال، وهذا يدلك على أيضاً حرف (في) وفائدته.

وهنا نلاحظ أنَّ السعدي رحمه الله استعمل قاعدة (على) التي تدلُّ على الاستعلاء، وقاعدة (في) التي تدلُّ على الانغماس.

****

تدبرات السعدي (3)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من تدبرات السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ((أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ))[البقرة:24] استنبط منها فائدة تتعلق بعقيدة أهل السنة والجماعة، وهذا يدلك على أنَّ التدبرات ليس فقط لطائف وأشياء مُلَح، أحياناً تتعلق بها أشياء عقدية، وأحياناً أشياء فقهية.

فالسعدي يقول في قوله تعالى: ((أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ))، قال: فلو كان عصاة الموحدين يخلدون فيها لم تكن معدَّة للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج والمعتزلة.

معنى كلام السعدي: السعدي أولاً سأل سؤالاً في ذهنه في قضية ما حكمة قول الله: ((أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ))، اللام هذه لام التخصيص، يعني: هل النار فقط للكافرين؟ فاستنبط منها الشيخ السعدي أنَّ هذا دليل على خلود الكافرين في النَّار، وأنَّه لا يخلد غيرهم، بمعنى: أنَّ عصاة الموحدين تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر لهم، وإن شاء عذبهم، لكنهم حتى لو عذبهم الله سيخرجون منها، فدلَّ ذلك على أنَّها إنَّما أُعدت وجُهزت لمن يخلد فيها وهم الكفار، خلافاً لعقيدة الخوارج والمعتزلة الذين يقولون بأنَّ صاحب الكبيرة خالد مخلد في النَّار. فانظروا الآن كيف استنتج السعدي رحمه الله من هذه الآية فائدة عقدية تتوافق مع منهج أهل السنة والجماعة، وهذا من دقة الشيخ رحمه الله، وتفكره في كلمة ((أُعِدَّتْ)).

ونلاحظ أيضاً ملاحظة ثانية: أنَّ الشيخ السعدي رحمه الله فكر في دلالة الكلمة نفسها التي هي ((أُعِدَّتْ))، يعني: ما سرُّ هذا اللفظ الإعداد هذا؟ ثم فكر في حرف اللام التي تفيد التخصيص ((لِلْكَافِرِينَ))، فاستنتج الأمر الذي ذُكر.

****

تدبرات السعدي (4)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من تدبرات الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ((وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ))[البقرة:43]، قال: أي صلوا مع المصلين، ففيه: الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه: أنَّ الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنَّه عبَّر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدلُّ على فرضيته فيها. انتهى كلام السعدي.

السعدي هنا نلاحظ أنَّه أثار سؤالاً ثم أجاب عنه بجوابين وبفائدتين، وهذا هو التدبر أن يثير الإنسان سؤالاً، فأثار ما سرُّ ((مَعَ الرَّاكِعِينَ))؟ يعني: ما الحكمة من قول الله: ((ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ))؟ في غير القرآن لِم لَم يقل واركعوا مع المؤمنين؟ أو واركعوا بدون مع المؤمنين.

فأجاب فائدتين:

قال: يدلُّ ذلك على الأمر بصلاة الجماعة، وأنَّها واجبة كما هو قول الإمام أحمد، ورجحه ابن تيمية وجماعة من أهل العلم، فهنا قال: وجوب الجماعة مأخوذ من كلمة ((الرَّاكِعِينَ))، وليس

من كلمة ((ارْكَعُوا))، ((ارْكَعُوا)) دليل على وجوب الصلاة، لكن ((مَعَ الرَّاكِعِينَ)) دليل على وجوب صلاة الجماعة.

ثم استنتج فائدة ثانية وهي: أنَّ الركوع بحدِّ ذاته ركن؛ لماذا؟ لأنَّ الله قال: ((وَارْكَعُوا))، والمعنى: وصلوا، فهو عبَّر عن الصلاة بالركوع، فهذا دليل على أنَّ الركوع أهم أجزاء الصلاة مما يدلُّ على أنَّه ركن، فلاحظوا كيف استنتج السعدي رحمه الله من هذه الكلمة ((الرَّاكِعِينَ))، وكلمة ((ارْكَعُوا)) استنتج فائدتين كلاهما فوائد فقهية، وهذا يدلك على سعة باب التدبرات، وأنَّه يستنتج منها فوائد فقهية، وفوائد عقدية، وفيها لطائف، وفيها مُلَح، وفيها أشياء تتعلق بعيون العلم، وفيها أشياء تتعلق بمحاسن العلم.

****

تدبرات السعدي (5)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من تدبرات الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ((وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى))[النجم:1-4]، يقول الشيخ السعدي: وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّ في ذلك مناسبة عجيبة، فإنَّ الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، وكذلك الوحي زينة للأرض. انتهى كلام الشيخ السعدي.

السعدي الآن يدربنا على قضية أخرى في التدبر وهي: المناسبة بين ذكر أمرين، يعني: ما الحكمة من ذكر النجوم مع الوحي؟ ما الحكمة من ذكر القلوب القاسية مع إحياء الأرض؟ ((فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ))[الحديد:16]، ثم الآية التي بعدها: ((اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الأَرْضَ))[الحديد:17]، ما الحكمة بين هذه وهذه؟ وهذا باب أيضاً في التدبر عظيم جداً باب المناسبات، ومن ضمنها المناسبة بين القسم والمقسم به، ما الحكمة من القسم بالنجم وذكر بعدها الوحي؟ فلابد أن يكون هناك حكمة فيُعمل الإنسان ذهنه. هذا الإعمال الذهني هذا هو التدبر، وهذا هو العبادة التي نسأل الله أن يتقبلها الله من عبده المؤمن.

السعدي ذكر لنا وجهاً من أوجه المناسبة بأنَّ النجوم زينة للسماء، وكذلك الوحي زينة للأرض، وبعض المفسرين أضاف إضافات أخرى، فمثلاً بعضهم يقول: المناسبة هي أنَّ النجوم هداية، والوحي هداية، النجوم يُهتدى بها والوحي يُهتدى به.

أيضاً هناك من المفسرين من ذكر وجهاً آخر: أنَّ النجوم تحمي السماء من استراق الشياطين، والوحي يحمي الأرض من عبث الشياطين، شياطين الإنس وشياطين الجن.

والطاهر بن عاشور يقول: بأنَّ النجوم (الشهب) تنزل من أعلى إلى أسفل منوَّرة (يعني: فيها نور)، والوحي ينزل من أعلى إلى الأسفل أيضاً منوَّر وفيه نور.

فنلاحظ أنَّها عبارة عن اجتهادات، وكلُّ واحد منهم حاول أن يثير ذهنه ويفكر ويعيد وينظر ويستقرئ القرآن، وهذا كله من العبادة التي يؤجر عليها الإنسان، ومن أفضل ما قُضيت به الأعمار أن يفكر الإنسان في آية من كتاب الله ما سرُّ اقتران هذه مع هذه، فالسعدي الآن يفتح لنا باب المناسبات أو باب الاقتران، وهو كثير جداً في القرآن تستطيع أنَّك تطبقه، فمثلاً في قوله:

((قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ))[الناس:1-3]، ما سر هذه الأسماء الثلاثة؟ وتسير على كل القرآن في مثل الأسلوب.

****

تدبرات السعدي (6)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من تدبرات السعدي في قوله تعالى: ((قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ))[يس:52]، يقول الشيخ السعدي: ولا تحسب أنَّ ذكر الرحمن في هذا الموضع لمجرد الخبر عن وعده، وإنَّما ذلك للإخبار بأنَّه في ذلك اليوم العظيم سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون. انتهى كلام السعدي.

كلام السعدي الآن يوضح لنا عدَّة قضايا:

القضية الأولى: أنَّ السعدي أثار سؤالاً على اسم (الرحمن)، يعني: ما الحكمة من ذكر اسم الرحمن؟ وهذا يفتح لنا باب كبير جداً في التدبر وهو باب: التدبر في أسماء الله الحسنى، ما الحكمة من ذكر (الرحمن) في هذه الآية؟ ما الحكمة من ذكر (السميع) في الآية الفلانية؟ ما الحكمة من ذكر (العزيز) في الآية الفلانية؟ ما الحكمة من ذكر (العليم) في الآية الفلانية؟ فكلُّ آية جاء فيها اسم من أسماء الله الحسنى الشيخ السعدي رحمه الله يقول لك: انتبه، وفكر، وهذا موضع من مواضع التدبر، ولابدَّ أنَّك تتدبر فيه، وستجد معنى من المعاني التي فيها تفسير لهذا الذكر.

وتفكيرك ومحاولة جوابك وبذلك الجهد هذا هو عبادة التدبر التي يؤجر عليها الإنسان وهي أفضل ما قُضيت به الأعمار.

السعدي يقول بأنَّ الحكمة من ذلك من ذكر اسم (الرحمن) هنا: حتى يتذكر الإنسان رحمة الله في ذلك اليوم، يعني: يوم القيامة، وهذا وجه سليم، والسُنَّة أيضاً تؤيده، ولهذا جاء هنا اسم الرحمن.

****

تدبرات السعدي (7)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من تدبرات الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ((الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ))[المجادلة:2]، انظروا دقة استنباط السعدي، السعدي دقق في كلمة (نسائهم)، واستنبط منها فائدتين فقهيتين:

الأولى: أنَّ الظهار مختص بالزوجة، لماذا؟ لأنَّه قال: ((مِنْ نِسَائِهِمْ))، والمرأة لا تسمى "من نسائهم" إلا إذا تزوجها الإنسان، أما قبل العقد وقبل الزواج فهي لا تسمى، ولهذا لو ظاهر من امرأة ولم يتزوجها فإنَّه لا يعتبر ظهاراً، ولو ظاهر وقد عقد ولم يدخل فإنَّه لا يسمى ظهاراً؛ لأنَّه لم يدخل بها لا تسمى من نسائه. من أين أتى السعدي بهذه الفائدة؟ من كلمة (نسائهم)، يعني: زوجاتهم.

الفائدة الثانية: أنَّ الظهار لا يصحُّ من الأمة، يعني: لو ظاهر إنسان من أمته فإنَّه لا يصح، لا يقع ظهاراً، يعني: لا نلزمه بالكفارة، من أين أتى السعدي بذلك؟ أيضاً من كلمة (نسائهم)؛ لأنَّ الأمة لا تكون من ضمن النساء، وإنَّما هي من ملك اليمين.

فالخلاصة انظروا كيف دقق السعدي في كلمة (نسائهم) واستنبط فائدتين فقهيتين، فهنا نسجل عدَّة ملاحظات:

الملاحظة الأولى التي تعودنا عليها وهي: إثارة سؤال على الآية.

الملاحظة الثانية: أنَّ التدبر يشمل حتى الأحكام الفقهية، فقد يستطيع الإنسان أحياناً أن يستنبط حكماً فقهياً من آية من الآيات.

والشيء الثالث: التفكر في الألفاظ، يعني: في ألفاظ القرآن، السعدي هنا يربينا ويدربنا على أن نتفكر في اللفظ، لِمَ لَمْ يقل: زوجاتهم؟ لِمَ قال: ((مِنْ نِسَائِهِمْ))؟ لِمَ لَمْ يقل لفظاً آخر؟ ويبدأ الإنسان يفكر ويثير هذه الأسئلة ويفكر فيها، ثم يهتدي بعد ذلك إلى جواب من الأجوبة.

****

تدبرات السعدي (8)

بسم الله، والحمد لله، وصلى الله وسلم وبارك على رسول الله.

أيضاً من تدبرات الشيخ السعدي رحمه الله في قوله تعالى: ((لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا..))[الحشر:8] إلى آخر الآية، ثم قال في الآية الأخرى: ((وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ))[الحشر:9]، فالسعدي يقول: دلَّت الآية على أنَّ المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأنَّ الله قدَّمهم بالذكر.

هنا نسجل ملاحظات:

الملاحظة الأولى: أنَّ الإنسان عليه أن يتساءل في آية معينة يثير عليها سؤالاً ويفكر فيه، وما دام أنَّ السؤال ليس ناشئاً اعتباطياً أو مشاغبة على الآية أو عناداً، ما دام أنَّه لتحفيز الذهن فهو سؤال مشروع، بل سؤال عبادة، والتفكير في الجواب في السؤال بحدِّ ذاته عبادة أخرى.

الأمر الثاني: نلاحظ أنَّ السعدي رحمه الله ذكر قضية التقديم والتأخير في القرآن، يعني: لفت الانتباه إليها، وبالتالي نستطيع نحن أن نسير على هذه المنهجية، ونبدأ نفكر في آيات كثيرة، ما الحكمة من تقديم شيء على شيء؟ مثلاً في قول الله: ((فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ))[الروم:17]، ما الحكمة من تقديم المساء على الصباح؟

((وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ))[الروم:18]، ما الحكمة من تقديم العشي على الظهر؟

((يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ))[الروم:19]، ما الحكمة من تقديم الحي على الميت؟

((وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ))[الروم:20-21]، ما الحكمة من تقديم الخلق على قضية الأزواج؟

((وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ))[الروم:22]، ما الحكمة من تأخير الألسنة والألوان؟

وغير ذلك من الآيات التي فيها السعدي فتح لنا مجالاً في قضية أن نتفكر لِمَ قُدِّم هذا على هذا.

الأمر الثاني: أنَّ السعدي أعطانا قضية أنَّ التقديم أحياناً للأفضلية، أحياناً يُقدَّم الشيء لأفضليته، فهذا جواب من الأجوبة، ويبدأ الإنسان يفكر في جواب آخر.

وكذلك في قول الله: ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ))[الفاتحة:5]، ما الحكمة من تقديم العبادة على الاستعانة؟

((صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ))[الفاتحة:7]، ما الحكمة من تقديم الذين أنعم الله عليهم؟ ما الحكمة من تقديم ((الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ)) قبل ((الضَّالِّينَ))، ((غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ)).

وأيضاً تستطيع أنَّك تسأل سؤالاً آخر: ما الحكمة من تأخير الضالين؟ لماذا أُخِّروا فجُعلوا في آخر المراتب؟ فمثلاً قُدِّم الذين أنعم الله عليهم لأنَّهم أشرف الأقسام؛ لأنَّهم أهم الأقسام المؤمنون، وفي المغضوب عليهم والضالين المغضوب عليهم أشد خطراً لأنَّهم يتركون الشيء عن علم، والضالين لأنَّهم جهَّال، فجهلهم هو سبب تأخيرهم، وأولئك لأنَّهم يعلمون ويخالفون علمهم هو سبب الغضب عليهم فقُدِّموا.